

تمثيلات المرأة في الأمثال الشعبية الجزائرية

Women's representation in Algerian popular proverbs

د. شامة مكلي^{1*}، أ.د. نعيمة العقريب²

¹ أستاذة محاضرة "أ" جامعة مولود معمري- تيزي وزو (الجزائر)، chama.mekli@ummtto.dz

² أستاذة التعليم العالي جامعة مولود معمري- تيزي وزو (الجزائر)، naima.lakrib@ummtto.dz

تاريخ القبول: 2025/05/31

تاريخ الإستلام: 2024 / 01 / 10

ملخص:

إنَّ الأمثال الشعبية ممارسة لغوية جمالية متداولة في الموروث الثقافي الجزائري باعتبارها عنصرا مهماً تستخدمه جميع فئات المجتمع، حيث تعمل على توحيد الوجدان والطباع والعادات، كما ينظر إليها من ناحية أخرى على أنَّها وثيقة تاريخية واجتماعية هامة تمكّننا من قراءة أخلاق المجتمع وعاداته وطرق تفكيره وفلسفته في الحياة، فهي تكشف عن لغة الجماعة واستعمالاتها اللفظية وأسلوب عيشها ونمط تفكيرها ومعاييرها الأخلاقية. خلص البحث إلى أن المثل الشعبي قد أبرز وجود تحيزات ثقافية داخل المجتمع الجزائري من خلال تلك الصورة النمطية السلبية للمرأة الغالبة على هذه الأمثال؛ مما يؤثر في النظر إلى المرأة و دورها في المجتمع ووظيفتها، وهذه الصورة هي نتيجة لهيمنة النظرة الذكورية في المجتمع. الكلمات المفتاحية: أمثال شعبية؛ تمثيلات؛ ذكورية؛ قيم اجتماعية؛ امرأة؛ هيمنة.

Abstract:

Popular proverbs are an important element used by all categories of people in society, as they unite feelings, nature and customs, and are seen on the other hand as an important historical and social material that enables us to read the morals, customs, ways of thinking and life philosophy of society, revealing the community's language, dialectic uses, ways of life, styles of thinking and ethical standards.

The research concluded that the popular proverb highlighted the existence of cultural prejudices within Algerian society. Through this negative stereotype of women that prevails in these proverbs, which affects the view of women, their role in society, and their function, and this image is a result of the dominance of the male view in society.

Keywords: domination; male; popular proverbs; representations; social values; women.

1. مقدمة:

تعدّ الأمثال الشعبيّة من أشهر فنون القول الشعبيّة المتداولة بين الناس، تم تناقلها شفاهيا من جيل لآخر، وقد اهتم بها النقاد والبلغاء والأدباء نظرا لما تحمله من خصائص تعبيرية ولغوية ودلالية وجمالية، حيث تعتمد على الإيجاز اللغوي والإيقاع الصوتي فتأتي أغلب الأمثال في شكل تعبير قصير محدود الكلمات مكثف المعاني، فكل كلمة في المثل تختلف في معناها عن نفس المفردة المستخدمة في الكلام العادي لأنها تزخر بالمعاني الحافّة والانزياحات، حيث يقوم متلقي المثل بعملية التأويل وملء الثغرات انطلاقا من معارفه السابقة وخبراته، لأن المثل يعرض لقطات متنوعة وعامة من الخبرة الإنسانية. ولكن المثل الشعبي، مثل غيره من الأشكال التعبيرية الأخرى، يترجم ثقافة وتصورات الجماعة التي ينتج فيها؛ سنحاول من خلال هذه الدراسة اكتشاف بعض أبعاد المركزية الذكورية التي تتوارى خلف البنى النصيّة للمثل الشعبي الجزائري؛ بحيث تجعل منه خطابا أدبيا مزدوجا يحمل، من جهة قيما تعبيرية جمالية، ومن جهة أخرى، يحمل أنساقا ثقافية تعبّر عن النظام التصوري الكلي للجماعة. وسنبرز تمثّل المثل الشعبي الجزائري لصورة المرأة في مختلف أوجهها (الزوجة، البنت، الأم، الأخت).

اعتمدنا في هذا العمل على المنهج الوصفي التحليلي، وكذلك بعض مقولات النقد الثقافي خاصة ما تعلق منها بمفهوم الهيمنة والتمهيش التي استثمرناها في القراءة الدلالية للأمثال الشعبية الجزائرية وكشف المضمرات الثقافية والاجتماعية التي يختزنها المخيال الاجتماعي للمجتمع.

يسعى البحث أن يجيب عن الأسئلة التالية:

يسعى البحث أن يجيب عن الأسئلة التالية:

- كيف تشكّل الوعي الجمعي الناظر إلى المرأة في الأمثال الشعبية الجزائرية؟

- وكيف تجلّى النسق الذكوري في المثل الشعبي وما هي تمثلاته للمرأة؟

2- مفاهيم الدراسة:

2-1- مفهوم الأمثال الشعبية:

يعتبر المثل الشعبي من أبرز أنواع الأدب الشعبي التي عرفت انتشارا بين مختلف فئات الناس حيث وصلتنا مادة مهمة من هذه الأمثال رغم اعتمادها على الشفاهية في تداولها بين الأجيال المختلفة، حيث يتسم المثل بسهولة الحفظ المرتبط بالاقتران اللغوي وكذلك الجانب البلاغي الجمالي والتكثيف الدلالي، حيث يعرفها ابن عبد ربه في العقد الفريد على أنها «وشي الكلام وجوهر اللفظ وحلي المعاني، والتي تخيرتها العرب وقدمتها العجم، ونطق بها في كل زمان، وعلى كل لسان، فهي أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة، ولم يسر شيء مسيرها ولا عمومها حتى قيل: أسير من مثل» (عبد ربه، 1971، صفحة 63) فقد اهتم القدماء والمحدثون بالأمثال لأنها تنقل خبرات الإنسان وتجاربه ورؤيته للحياة وسلوكياته ونظرته للآخرين وبالتالي تعطينا صورة عميقة عن ثقافته وحياته بشكل عام في عبارات مختصرة كثيفة الدلالة وهو الأمر الذي جعل خيدوسي يعتبر المثل الشعبي «صفوة الأقوال، وعصارة الأفكار لأجيال سبقتنا عبر التاريخ الإنساني، وهو زبدة الكلام الصادر عن البلغاء والحكماء، أجمع المتحدثون على صوابه للاستشهاد به في مواقف الجدل ومختلف ضروب الكلام.» (خيدوسي، 2002، صفحة 5)

فيكتسب المثل الشعبي احتراماً بين الناس المتداولين له والدليل على ذلك تغير نبرة الصوت عند نطق المثل مقارنة بالكلام الذي يليه والذي يسبقه حيث يظهر المتكلم وكأنه يستعير بصوت الأجداد المقدس ولهذا كثيراً ما كانت الأمثال الشعبية سبباً في فك شجارات وعقد صفقات... الخ بل وفي بعض مناطق إفريقيا تكون سبباً في تغيير حكم القاضي مما يوضح مدى تأثيرها على نفسية وسلوك مستعمليها، إذن تملك الأمثال الشعبية قيمة حجاجية كبيرة ولهذا تستعمل للإقناع والتأثير على الآخرين فنجد جميع طبقات الشعب تستعمل الأمثال عوامهم وخواصهم حيث يقول الخوارزمي: «المثل ماستعمله غير واضعه وهو يقبله، ووضعه في أثناء كلامهم الخاصة والعامة». (الخوارزمي، د.ت، صفحة 5)

2-2- مفهوم التمثيلات (Representations):

نجد في قاموس "المنجد في اللغة والأعلام" بعض الدلالات اللغوية للفعل "تمثل" لعل من أهمها «تمثل أو تصوّر الشيء: توهم صورته وتخيلته واستحضره في ذهنه، تصوّر له الشيء: صار له عنده تمثيل مشخّص أو صورة وشكل» (دون مؤلف، المنجد في اللغة والأعلام، 1975، صفحة 444).

نلاحظ أن مفهوم التمثيل الذي جمعه كلمة "تمثّلات" ارتبط بالصور الذهنية، وقد يكون فعل التمثيل مجسماً أو غير مجسّم. أما من الناحية الاصطلاحية فقد كان مفهوم التمثيل محل دراسة وبحث من طرف العديد من المختصين في علم النفس وعلم الاجتماع والتربية والفلسفة... الخ، ومن بين التعريفات الكثيرة لمفهوم التمثيلات الاجتماعية نجد هذا التعريف التالي: «هي المنتج والسيرورة في آن واحد للعملية العقلية، والذي من خلاله يقوم الفرد أو الجماعة بإعادة بناء واقعه وإعطائه دلالات ومعاني» (J.C.Abric, 1987, p. 64).

إذن فالتمثيل هو مجموع المعارف والتصورات التي تخزن في الذاكرة ويتم استرجاعها عند الحاجة، والتمثيلات الاجتماعية عبارة عن رؤية للكون فهي مجموعة من المدارك والمعلومات والمعتقدات التي يعطي من خلالها الفرد معنى لسلوكه ومرجعياته التي ينتمي إليها، وهذه التصورات هي التي تقود الممارسات الاجتماعية وتحدد مساراتها، وطبعاً تختلف التمثيلات وتتغير بتنوع الوسط الاجتماعي، فتختلف تمثيلات القروي عن تمثيلات الحضري وتمثيلات ساكن الصحراء عن تمثيلات ساكن الساحل... الخ.

3- أهمية الأمثال الشعبية الجزائرية والعناية بها:

لقد ظهرت بعض المصنفات التي اهتم فيها الباحثون الجزائريون بجمع الأمثال الشعبية الجزائرية وشرحها نذكر من أبرزها:

- مصنف محمد بن شنب المعنون "الأمثال في الجزائر والمغرب": ويعود إلى مستهل القرن العشرين احتوى على 3127 مثلاً تم تسجيلها في لهجتها الأصلية، وبعض تنوعاتها المتوفرة مرتبة وفق التسلسل الأبجدي ومترجمة إلى اللغة الفرنسية (إبراهيم، د.ت)، الصفحات 168-169).

لقد أدرك محمد بن أبي شنب أهمية التراث الثقافي للأمة الجزائرية ودوره الكبير في الحفاظ على تماسكها واستمرارها، ولهذا التفت إلى التراث الشعبي باعتباره الوسيلة التي بقيت للجزائريين لنقل الخبرات ومحاربة سياسة الطمس والتغريب والتجهيل التي مارسها الإستعمار الفرنسي بعنف ووحشية لا نظير لهما.

ولهذا اهتم بالعامية الجزائرية من خلال أبحاثه في علاقاتها بالتركية والفارسية وكذلك تتبعه لأصل ومعاني بعض المفردات العامية الجزائرية كالشاشية والتليس. الخ، مما يدل على غزارة معارفه اللغوية والتراثية وإجادته لكثير من اللغات الأجنبية.

كما راعى المؤلف حتى التنوعات اللهجية داخل الدارجة الجزائرية في حد ذاتها، من خلال إيراد المناطق التي يتداول فيها المثل، وقد حاول أن ينظّم الأمر للقارئ حتى يسهل عليه معرفة المناطق الجغرافية التي يتداول فيها المثل من خلال استعمال رموز مفتاحية فاستعان بحروف فرنسية كبيرة حيث جعل كل حرف منها يدل على المنطقة التي يتداول فيها هذا المثل، وكذلك الفئات التي تستعمله وهذه الرموز نوردتها كما يلي:

مستعمل من المثقفين والمتعلمين : L

مجموع ومسموع من المدينة : M

مجموع ومسموع من الجزائر العاصمة : A

مستعمل في قسنطينة والقطاع الشرقي : C

مستعمل في وهران والقطاع الغربي : O

مستعمل في الجنوب والهضاب العليا : S (Ben Cheneb, 2013, p. 19)

- مصنف عبد الحميد بن هدوقة "أمثال جزائرية" (بن هدوقة، 1993، صفحة 9): وقد جاء مرتبا ترتيبا أبجديا عمل صاحبه - وهو الروائي الجزائري المعروف عبد الحميد بن هدوقة - على جمع أكبر عدد ممكن من الأمثال الشعبية المتداولة في قريته بمنطقة "الحمراء" الواقعة في ولاية برج بوعرييج وما يجاورها من مدن، يضم الكتاب 640 مثلا اعتمد صاحبه على طريقة الشرح والتعليق على الأمثال حيث يقول عن منهجه المعتمد في وضع مصنفه: «أوردت المثل، وذكرت السياق الذي يقال فيه، ولأحظت مدلوله الأخلاقي والاجتماعي، كلما بدا ذلك ضروريا، ثم أتيت بمثل، أو أمثال مشابهة له... خاتما الشرح والتعليق بالجانب اللغوي... كما لم أغفل القصص التي تتعلق بالأمثال، سواء لأهميتها الاجتماعية أو الحضارية... والغرض من ذلك هو إعطاء الكتاب صبغة أدبية تحبب القارئ في مطالعته، وتمكنه من الدخول إلى عالم الأدب الشعبي والأدب العربي القديم». (بن هدوقة، 1993، صفحة 9)

ويكشف هذا المصنف على موسوعية بن هدوقة حيث تمكن من رد كثير من الأمثال إلى أصولها في التراث الاسلامي أو ما يشابهها في الثقافة الشعبية المغاربية، كما اعتنى بشكل واضح بالبعد التداولي للأمثال وتحولاتها الدلالية مما منح قيمة كبيرة لهذا المصنف.

- مصنف قادة بوطارن: "الأمثال الشعبية الجزائرية: بالأمثال يتضح المقال" (بوطارن، 1987، صفحة 4). يحوي على 1010 مثل من الجنوب الغربي الجزائري، صنف صاحبه الأمثال الشعبية على حسب الموضوعات والحقول الدلالية، فبذل جهدا كبيرا في هذا التصنيف وقد ترجمه الدكتور عبد الرحمن حاج صالح، وقد بين قادة بوطارن صعوبة عملية تصنيف الأمثال حيث يقول في مقدمة كتابه: «أما ما تم من الدراسات إلى يومنا هذا فإنها رتبت غالبا ترتيبا ألفبائيا. وقد أخذنا على أنفسنا أن نخرج عن هذه الطريق المعبدة إلى طريق أخرى - ولم يكن ذلك هيئا - وهو أن تجمع هذه الأمثال بحسب الموضوعات ومراكز الاهتمام. غير أن المثل يصعب أن يدرج في باب من الأبواب وأن يركن في مكان واحد لأنه قد ينتهي إلى أكثر من موضوع وبذلك تتداخل الموضوعات وتكرر وقد تتعارض أحيانا» (بوطارن، 1987، صفحة 5)

ويرجع اهتمام الباحثين الجزائريين وغيرهم من المستشرقين بجمع وتدوين الأمثال الشعبية إدراكا منهم لقيمتها الاجتماعية والثقافية، حيث يتم اعتمادها وثيقة أنثروبولوجية مهمة في معرفة ثقافة وعادات وتقاليد المجتمع الذي يستعملها، لأنها ذات علاقة وطيدة بالبيئة الاجتماعية التي أنتجت فيها، حيث تبرز لنا خبرات وتجارب أصحابها في الحياة ومعاشاتهم وتصوراتهم حول الكون والحياة لأن «أمثال كل أمة مصدر هام جدا للمؤرخ الأخلاقي والاجتماعي يستطيع كل

منهما أن يعرف كثيرا من أخلاق الأمة وعاداتها وعقليتها ونظرتها إلى الحياة، لأنّ الأمثال عادة وليدة البيئة التي نشأت منها.» (أمين، 1953، صفحة 61)

ولهذا كان من الطبيعي جدا أن نجد بعض الأمثال الشعبية متناقضة مع البعض الآخر منها، بل وأحيانا قد تكون متصارعة ومليئة بالسخرية والتهكم، فنجد أمثالا تحتّ على الأخوة وصلة الدم: "خُوكُ خُوكُ لَا يُعْرَكُ صَاحِبُكَ" - "خُويَا قَمَحُ وَوَلِيدُ النَّاسِ مَلَحُ"، بينما نجد في المقابل أمثالا أخرى لا تربط الأخوة بصلة الدم: "خُوكُ مَنْ وَاتَاكَ مَا هُوشُ خُوكُ مَنْ يَمَاكَ وَبَابَاكَ" - "دَمُكَ هَمَّكَ" - "الأقارب عقارب".

لقد ارتبط كل مثل من الأمثال السابقة الذكر بخبرات كانت نتائجها مختلفة عن غيرها؛ ممّا يدل على تعدد التجارب واختلاف السياقات المرتبطة بكل واحد منها، لأنّ التجارب الإنسانية للأفراد متنوعة، ثم إنّ الحياة بحد ذاتها مليئة بالمتناقضات فهي مزيج من الخير والشر، الحق والباطل، الجد والهزل، ولكل سياق له الخاص به، ومن هنا فإن المثل «يربطنا بالتجارب المتعددة واللامتناهية في حياتنا وفي علاقاتنا بالعالم الذي نعيشه، إنه يعتني بتفاصيل الحياة وبالخبرات اليومية الفردية في تنوعها وفي خصوصيتها.» (بورايو، 2007، الصفحات 64-65)

كما نجد أحيانا في الأمثال الشعبية استعمالا مراوغا للغة فيه إضمار، ويستنفر المستمع كفاءاته اللسانية والمعرفية للوصول إلى المخفي لأنّ هذه الملفوظات تبدو ملتبسة، تقول عكس ما تظن نذكر منها على سبيل المثال: "هَذَاكَ مَا كُنَّا نَبْغُو لِلْأَخْبَابِ" - "مُيْنُ كَانْ حَيَّ مَشْتَاقْ تَمْرَة وَكِي مَاتْ عَلْفُولُوا عَرْجُونْ" - "مُيْنُ يَنْوَرُ الْمَلَحْ" - "عَلَى زِينِكَ وَكُحَالْ عَيْنِكَ" - "أَجِي يَايَمَا نُوْرِيْلَكَ دَارْ بَابَا".

وهكذا فإن التهكم أو السخرية في الأمثال الشعبية السابقة هي أسلوب بلاغي يدعو إلى الإنصات والفهم، وتوظف الأمثال هذه الإستراتيجية ليعبر من خلالها المتكلم عما يريد بقول مضاد له فيجاء بالذم في قالب مدح أو بالجد في قالب هزل، حيث تسمح هذه السخرية بضبط النفس أمام الشراسة، كما تسمح بجعل الساخر في وضع الأقوى، ومعالجة الكثير من الظواهر والأوضاع.

فبالرغم من أنّ قائل المثل في البداية هو الفرد وليس الجماعة إلا أنه «استحال تمثلا جماعيا واجتماعيا من خلال شيوعه وتعميمه وتمثله.» (أحمد خليل، 1979، صفحة 76)

إنّ الجماعة هي التي تعمل على تداول المثل وانتشاره بين الناس من خلال إعادة إنتاجه في سياقات مختلفة، قد تحمل معها دلالات إضافية تتناسب والسياق الجديد الذي تستعمل فيه، وكذلك مقاصد المستعملين لها، حيث إن أفراد كل مجتمع لغوي «يصوّرون الأشياء التي حولهم وفقا لنظرتهم إليها، وحسب آرائهم فيها، فالملاحظة الجماعية للمجتمع أو الزاوية التي ينظر من خلالها المجتمع إلى المخلوقات والأشياء هي التي تتحكم في وضع اللغة» (علي محمد، 2007، صفحة 66).

وتؤثر الكيفية التي ترتب وتؤلف بها الألفاظ داخل الأمثال على معانيها، لأنها تنتقي ألفاظها بدقة كبيرة مما يجعل الكلمات تخلق علاقات جديدة مع الواقع من خلال اللغة ففي المثل الشعبي "أَقْلُ الحُوتِ عَلَى اللَّيِّ بَابَاهُ حَوَاتٌ" اتخذت الكلمات معاني جديدة فأصبحت "أَقْلُ الحُوتِ" تعني كثرة الكذب والمراوغة ومعنى المثل: لا داع للمراوغة والكذب في حضور شخص خبير مجرب بالأمور.

ويكشف لنا الأدب الشعبي عن اللاشعور الجمعي والحالة النفسية والاجتماعية للجماعة والفرد ومستويات التفكير مع إبراز مختلف الخصائص للجماعات البشرية، وطبيعة سلوك الأفراد وعلاقاتهم مع بعضهم البعض واختلافهم الجنسي أو الطبقي، وترتبط كل هذه السلوكيات بتمثيلات وتصورات لها علاقة كبيرة بالمحيط الاجتماعي والبيئة التي ينشأ فيها الفرد. ولاشك أن الثقافة الشعبية - بمختلف مكوناتها - من أبرز المرجعيات التي يستخدمها العقل في علاقته بالواقع فقد تكونت عبر التاريخ ولها قدرة على الجمع بين المتناقضات، لأن مرجعياتها مختلفة باختلاف السياقات التاريخية المتراكمة، التي ترتبط بتعدد التجارب في الذاكرة الجماعية وتنوعها واختلافها، وهذه التمثيلات هي التي تشكل نسقا من القيم والمفاهيم والسلوكيات التي تؤدي دورا مهما في توجيه سلوكيات وتصرفات الأفراد وإدراك المواقف التي يتواجدون بها، يقوم الوسط الاجتماعي بدور أساسي في ذلك.

ويعتبر المثل الشعبي خطابا ثقافيا يحمل تمثيلات وتصورات الجماعة التي تتداوله وله تأثير كبير عليها، ونلاحظ أيضا أنه حتى عند استعمال الأمثال الشعبية - بصفة عامة - في صلب الخطابات الأخرى، فبالإضافة إلى منحها قوة كبيرة لهذه الخطابات، فإنه يظهر بوضوح تغير نغمة الصوت عند النطق بالأمثال مقارنة بالكلام الذي يسبق والكلام الذي يلي الأمثال.

وفي الحقيقة إنه «يمكن تفسير تغير نغمة الأداء اللغوي عند النطق بالمثل ورده إلى السلطة المفوضة من طرف الجماعة لمن يستعمل الأمثال التي يكرس المجتمع وجودها، ويحمل أداؤها بشحنة من المعاني ذات الطبيعة الرمزية والتي تعبر عن الإيديولوجية السائدة، سواء في المحيط العام للمجتمع أو بين أفراد الجماعة الضيقة... إن المثل في هذه الحالة عبارة عن كلمات تكتسب قوتها من الإيمان بمشروعيتها وبمشروعية الناطق بها معا، وهو إيمان لا يمكن للعبارة أن تنتجها وتولده لوحدها في ذاتها». (بورايو، البعد التداولي لأشكال التعبير الشعبي، 2006، صفحة 108).

تعتبر الأمثال صوت الأجداد المقدّس، ولهذا قبل إيراد المثل يُقال عادة بعض العبارات من قبيل: قالوا الأولين، قالوا ناس بكري، قالوا الجدود، قالو ناس زمان. وكان الناس يستدلون بها على ثقافة المتحدث بكثرة ما يورد منها فيكون محل تقدير واحترام، كما أن المثل المواتي المراعي لمقتضيات الحال قد يكون سببا في حل نزاع أو عقد صفقة أو إسكات ثرثار أو تفنيد حجة أو تجنب الكلام الطويل. (Ben Cheneb, 2013, p. 13)

وتستمد الأمثال الشعبية قوتها الكبيرة من السلطة المرتبطة بالجماعة، فالأمثال صوت الأجداد المقدس فيها صياغة لرؤية الإنسان الشعبي للعالم وتفاعله معه بكيفية جمالية متميزة، ضمّنها خبراته وتجاربه في الحياة وسلوكياته وفلسفته.

4. نسق الهيمنة الذكورية في المثل الشعبي الجزائري:

تعكس الأمثال الشعبية تفكير الجماعة وثقافة المجتمع الذي يتداولها، والمرأة باعتبارها نصف المجتمع كان لها نصيب وافر في هذه الأمثال، ومن خلال تتبعنا لبعض الأمثال الشعبية المتداولة في المجتمع الجزائري المتعلقة بالمرأة واستنطاق دلالاتها نستطيع أن نتعرف على بعض البنى العقلية التي تتحكم في رؤية الثقافة الشعبية للمرأة بما في ذلك رؤية المرأة ذاتها لنفسها.

إن الطبيعة السلبية التي تكرسها كثير من هذه الأمثال للمرأة لا علاقة لها بالدين وإنما هو مرتبط بثقافة شعبية سائدة عبر الأجيال، لها ارتباط في كثير من الأحيان بالأعراف المتوارثة والتنظيم الاجتماعي.

وتتجلى الهيمنة الذكورية في علاقة الرجل بالمرأة بشكل مباشر أو غير مباشر، في الأمثال الشعبية حيث جعلت من الرجل هو المتحكم في زمام الأمور بينما المرأة مجرد تابعة لا يمكن الاعتماد على عقلها، كما أنها ليست كيانا مستقلا له خصوصيته،

وإنما دائما ترتبط حياتها بالرجل أبا أو أخا ثم زوجا فيما بعد، حيث يقول المثل الشعبي: "الْقَرْسُ مِنْ الْقَارَسِ وَ الْمَرْأَةُ مِنَ الرَّاجِلِ" فمثلا يتحكم الفارس بالفرس على الرجل أن يقوم بالأمر نفسه مع المرأة لأنها مجرد منقادة لا تعرف التصرف ولا رأي لها، ودائما الرأي الأصوب والحكيم هو رأي الرجل وهو ما يدعمه أكثر المثل الآخر القائل: "شَاوَرْتُكَ وَدِيرْتُكَ"، حيث إن رأي النساء يجلب الندامة ولهذا يجب مخالفته وعدم الأخذ به: "طَاعَةُ النِّسَاءِ تُدْخِلُ لِلنَّارِ" - طَاعَةُ النِّسَاءِ نَدَامَةٌ. " فلو تم ترك الحرية للنساء لن يعرفن التصرف الجيد "الرجال غايبة والنسوة سايبة".

نستطيع من خلال التحليل الدلالي للأمثال السابقة الذكر، وللأمثال الأخرى غير المذكورة التي تطرقت إلى موضوع المرأة، أن نستخلص صورة ذهنية فيها تغييب لهوية المرأة أو ماهية تفكيرها فهي مجرد تابعة، حيث تعتمد هويتها بالدرجة الأولى على صفاتها الشكلية وجمالها الجسدي الخارجي "زين الرجل في عقله وعقل المرأة في زينها" فأهم شيء في المرأة هو الحسن والجمال، أي الجانب الجسدي وفقط، وإذا افتقدت هذه الميزة تنتقد وتستهن "الشابة شهوة والعجوز بلوة". وتحرص بعض الأمثال على اختيار المرأة ذات النسب الأصيل "خذ المرأة الأصيلة ونم على الخصيرة" لأن المرأة الأصيلة ذات النسب العريق يستطيع أن يستفيد منها الرجل في حياته ويجتاز الكثير من الصعوبات والعراقيل "خذ بنت الناس، إذا ما لقيت الهوى تلقى الخلاص".

ونلاحظ أن هناك نسبة ضئيلة جدا من الأمثال التي لا تركز على الصفات الجسدية والجمالية للمرأة فقط بل تحذر من الاهتمام بها على حساب تجاهل الأخلاق والأدب نذكر منها: «لا يعجبك زين الطفلة حتى تشوف الفعائل» - "امراة بلا حياء كالطعام بلا ملح" - "الفائدة ما هي في الزين، الفائدة في الخلق والدين".

أما بالنسبة إلى نقد تصرفات وسلوكيات النساء فهي دائما محل شك وريبة من طرف الرجل، حيث تعرضت الى الشتم والانتقاص بشكل كبير جعل الجانب السلبي يطغى على الإيجابي منها، فالمرأة ارتبطت في الأمثال الشعبية بتشبيهات فيها الكثير من السلبية والشر، حيث جعلت النساء حبات الشيطان ومكائدهن لا تنتهي ويجب الحذر منهم، وعدم إعطائهم الأمان أبدا مهما فعلن، لأنهن يستعملن العاطفة والجمال حتى يغوين الرجل حيث تبرز هذا الأمر الأمثال التالية: "النساء وكيهم ما تتنسى - النساء بقرات إبليس"

فيجسد الشيطان كل مشاريعه الشريرة عن طريق النساء فهن مثل البقرات للإنسان يعدن على الشيطان بفائدة عظيمة ولهذا لا يجب الاطمئنان إليهن: "ثلاث مسائل ما يتامنوشي في الدنيا: الزمان والنساء والخيال" - "أربعة يا إنسان ما فيهم أمان: المرأة والسلطان والبحر والزمان" ثم تبدأ الأمثال في التفصيل في بعض السلوكيات التي تربطها بالمرأة وكأن الرجل لا يتصف بها؟ نذكر منها:

1.4. قلة الوفاء وإفشاء السر والكذب:

تجعل بعض الأمثال الشعبية المرأة كائنا خائنا غدارا لا عهد له، ولهذا لا يجب الانجرار في العواطف مع النساء، وكلما كان الرجل متحكما في عواطفه حازما في التعامل معهن كلما كان ذلك أسلم له وأمن "ما في الشتاء همار ذافي ولا في النساء عهد وافي" فمثلا يتقلب الجو سريعا في فصل الشتاء ولا يستقر كذلك هن النساء متقلبات ولا يثبتن على حال واحدة، وهذا ما يدعمه المثل الآخر القائل: "لا تغرك شمس الشتاء ولا تغرك ضحكة النساء" فمهما كان سن المرأة سواء أكانت شابة أم عجوزا تبقى محل حذر لأن الخداع طبع متأصل فيهن، وهذا ما يبرزه المثل الذي جاء على شكل حوار بين القنفذ والذئب "قال القنفذ للذئب: المرأة ثم المرأة، قال له: الكبيرة وإلا الصغيرة؟ قال له: كيف كيف".

وتجعل الأمثال الشعبية المرأة مخلوقا ثرثارا لا يحفظ الأسرار ولهذا فهي تحت الرجل على عدم التحدث مع المرأة في بعض الأمور السرية، لأنها ستنتشرها مما قد يعرضه إلى الحرج والمتاعب مع الآخرين "اللي عينه في سرّه يفشيّه، يُجي لمجلس النساء ويوريّه" فهن معروفات بتجمعاتهن التي يكثر فيها القيل والقال والنميمة خاصة، وأن مناسبات الخروج من المنزل تكون محدودة في المجتمعات المحافظة قديما فلا تخرج المرأة إلا بعذر مثلا الأعراس والولائم والمآتم، وأحيانا الذهاب إلى الحمام وزيارة الأضرحة والمقابر في بعض المناسبات الدينية كالأعياد وعاشوراء، فتستغل النسوة هذا الفضاء التنفيسي في جمع الأخبار والمعلومات، وهذا ما يجسده المثل الشعبي القائل: "مشات للحمام جابت أخبار عام" فتثير النساء الفتنة عبر النميمة والثرثرة، وتؤدي كثرة الكلام إلى مالا تحمد عقباه وهذا ما يجسده المثل القبائلي "لَجْرُوحُ قَارَنُ خَالُونُ يَبِيرُ لَهْضُورُ قَارَنُ زَنُونُ/ الجروح تحفر وتلتأم، والكلام السيء يحفر ويزيد" حيث يرتبط المثل السابق بحكاية المرأة التي شتمت الأسد برائحة فمه الكريهة فقال لها بأن الجرح المادي يلتأم مع الوقت بينما جرح الكلام المعنوي، يزداد عمقا وألما مع الوقت، وكثيرا ما يفترق الأحباب بسبب المرأة "ما يفسد بين الأحباب غير النساء والدراهم".

وتلجأ النساء إلى الكذب والخداع حتى يحققن أهدافهن فتمدح العروس بصفات لا تتصف بها من طرف أقاربها حيث يقول المثل القبائلي: "يَنَاسُ أَنْوَا أَكْمَشْكَرَانُ أَثْيَسْلِيْثُ، ثُنَاسُ ذِيْمَا سُرَاثُ خَالْتِي / قيل: من يمدحك يا عروس؟ قالت: أُمي بجوارها خالتي".

2.4 المادية وحب المال:

جعلت الأمثال الشعبية المرأة تنجذب إلى المال والمادة فتجعلهما في المحل الأول على حساب الأخلاق فهي تفضل الرجل الغني على الرجل الفقير، ولهذا نجد بعض الأمثال تعطي الحلول للرجل إذا عشق امرأة ولم ترض به فعليه أن يستدرجها بالمال والذهب «إِذَا بَابُ الْعَشْقِ مَغْلُوقٌ قُوْتُ عَلَى بَابِ الذَّهَبِ» فمن باب الذهب يستطيع أن يدخل إلى فكر وقلب المرأة.

كما أنّ الكلام المعسول له دور في استمالتها حيث تنجذب النساء نحو الغزل والكلام المنمّق "المرأة يَجِيْبُوها الذُّهْوبِي وَإِلَا الكُذُوبِي" فلا سبيل لكسب ودها إلا عن طريق الذهب أو الكلام المنمّق، فيصور المثل المرأة على أنها إنسان مادي جشع طماع أو إنسان ساذج مغفل ينخدع بالكلام المعسول وكلاهما أمر سلبي وغير محمود في المجتمع. ولهذا فإن الرجل لما يذهب للخطبة لابد أن يعرف كيف يتكلم حتى ينال الرضا والقبول "الخطَّابُ رَطَّابٌ"، كما أنهم ترغبين فيمن يحضر إليهن الهدايا، ولهذا يحث المثل الشعبي الزوج على إحضار هدية لزوجته بعد سفره، حتى وإن كانت ليست ذات قيمة كبيرة، لأن هذا الأمر سيترك أثرا طيبا في نفسها ومشاعرها وبالتالي تعاملها مع زوجها فلا تنكّد عليه العشرة "إِذَا رَجَعْتُ مِنَ السَّفَرِ اهْدِي لِأَهْلِكَ وَلَوْ كَانَ حَجَرٌ".

ونلاحظ من جهة أخرى، احتواء بعض الأمثال على صيغ الأمر أو النهي "افعل كذا ولا تفعل كذا" وأغلب الكلام يوجه للرجل حتى يكون حازما ولا يترك مجالا للمرأة حتى تفرض رأيها لأنها "تتمسكن حتى تتمكن فهي تلجأ إلى الحيلة والخداع فلما نلاحظ علاقات الرجل / المرأة نجد حثا للرجل على حسن اختيار الزوجة، ونظرا لطبيعة الزواج التقليدي، الذي يعتمد على تعارف العائلات نجد المثل القائل "خُذْ البناتْ على الأماتْ وخُذْ الخيلْ على الصفاتْ" فتتأثر البنت بأמהا كثيرا، ومساوئ المرأة ترجع إلى جنسها الأنثوي وليس إلى أسباب اجتماعية فإذا كانت الأم حسنة السمعة وذات أخلاق تكون ابنتها مثلها.

وتحذر الأمثال الشعبية من الزواج من المرأة الأرملة، حتى ولو كانت حسناء، لأنها تبقى دائما تقارنك بزوجها المتوفي "لا تاخذ الهجالة ولو كان خدّها مشموم أنت تخدم وتجيّب وهي تقول الله يرحم المرحوم"، ومن جهة أخرى نجد حثا على الزواج الداخلي من الأقارب والعائلة، والأمر هنا يتعلق بزيادة أواصر صلة الرحم والمحافظة على الانسجام والعشرة الزوجية لتقارب العادات والسلوكات وأيضا هناك جانب اقتصادي حتى لا يأتي الصهر الغريب ويطلب بحصة زوجته من الإرث "خذ طريق العافية ولو دابرة، وخذ بنت العم ولو بايرة" - "بنت عمك ترفد همك" - "خذ بنت عمك إذا مضعتك ما تُسرطك"،

وتركز بعض الأمثال على الجانب الإيجابي للمرأة المدبرة المقتصدة لأنها عون للرجل في هذه الحياة باعتبارها هي التي تدبر شأن المنزل داخليا "الراجل بحر والمرأة قلّة" "الراجل ساقية والمرأة جابية" أي كل ما يجنيه الرجل يصب عند المرأة، حيث شبه الرجل بالبحر والمرأة بالبحيرة فهي التي تعمل على صيانة الرزق وعدم تبذيره من خلال استعماله بعقلانية، فلا تتعرض الأسرة للفاقة والجوع، وهو الأمر الذي يؤكد المثل القبائلي الآخر الذي يصب معناه في نفس السياق "قامطوُث إحرزان ثيف تايوفا إكرزان" معناه: المرأة التي تصون بيتها خير من زوج ثور حارث.

وتحث الأمثال على الشدة في معاملة المرأة بعد الزواج سواء عن طريق التعنيف المادي المتمثل في الضرب "الي ما يذبح شاته ويسوط مرآته موته خير من حياته" - "اضرب مراتك ديمًا، إذا أنت ما تعرفش غلاش هي تعرف غلاش" - "اضرب القطوسة تخاف الغروسة" أو التعنيف المعنوي وليس هناك أقسى على المرأة من أن يتزوج زوجها عليها ويحضر لها ضرة تشاركها فيه، فتتجرح في كرامتها وعاطفتها وهو ما يراه المثل الشعبي "بط النس بالنسا ماشي بالعصا". ونجد بالمقابل أن هناك أمثال قليلة جدا، تنتقد الرجل الذي يعنف المرأة لأنه ليس من المروءة ولا الرجولة أن تضرب مخلوقا أقل منك طاقة جسدية "ما يضرب المرأة إلا العرة".

تعكس هذه الأمثال الشعبية العلاقة الاجتماعية بين الرجل والمرأة، التي تبرز فيها الهيمنة الذكورية التي انتقلت من مستوى الواقع إلى مستوى خطاب المثل الذي أنتجه الرجل المسيطر فقام وفق ذلك «بتشكيل الواقع وفق تصوراته، فوّرّع الأدوار الاجتماعية، وعضد موقفه ببناء التقسيمات واختيار المعاني، بعد ذلك قام بالمصادقة عليها، ولم يكن للمرأة في هذا سوى الرضوخ والرضا.» (برهومة، 2002، صفحة 37)

ويعمل المجتمع عبر وسائل ضغطه المختلفة على تدجين الأنثى وإخضاعها بل وجعلها ترضى عن وضعها في ظل سيطرة الرجل، حيث يتم نبذ الأنثى وانتهاك حقوقها وحريتها لأنها أنثى فقط، فليست ظواهر الثقافة الشعبية في حقيقة الأمر «سوى أفعال اجتماعية في نهاية المطاف وتكمن وراء هذه الأفعال الاجتماعية، القوى والتيارات والفئات والطبقات المتصارعة» (أحمد خليل، 1979، صفحة 90)

ويبدأ نبذ الأنثى يظهر هذا من لحظة الولادة، حيث يتم تفضيل جنس المولود الذكر على جنس الأنثى التي تُستقبل في حالة نفسية كئيبة على عكس الذكر، فيضطر والد البنات الكثيرات أحيانا إلى مصاهرة السيئين ولا يترك بناته دون زواج لأنها أخف الضررين حسب "من كثرو بناته نُعوذ أعباد السوء أنسابه"، ويضطر للبحث لها عن زوج حتى وإن اضطر أن يتحمل أعباء إضافية في سبيل ذلك "أعطيني بنتك وهاك كذا وكذا، هاك عولتها وهنيي منها" أو المثل "أخطب لبنتك وما تخطبش لابنك" في مقابل بعض الأمثال القليلة التي تجعلها تتذكر دائما الأولياء على عكس الذكور لأن البنت ذات قلب حنون على والديها وتملك عاطفة جياشة "اللي خلى البنات ما مات".

وتحتل صورة الأم مكانة مقدسة وإيجابية في الأمثال الشعبية الجزائرية، حيث تعتبرها رمز الحنان والعاطفة الجياشة، فاليتيم ليس من فقد أباه وإنما من فقد أمه لأنها هي التي ترعاه وتهتم بشؤونهم، بينما الأب لا يستطيع فعل هذا ولن يعوض فقد الأم أي امرأة أخرى "إم يما ثموثُ أوردُ يَقمُ يسمُ نثموثُ"/ بما أن أمي ماتت فلم يبق أي اسم لامرأة، ويؤكد المثل الشعبي "اللي بأمه يتوسد ركبته واللي ببابه يتوسد العتبة" فاليتيم الحقيقي هو الذي يفقد أمه لأنها مصدر الحنان والعاطفة.

5. خاتمة:

تعد الأمثال الشعبية من أكثر أشكال التعبير الشعبي انتشارا وتداولاً بين الناس باعتبارها عنصراً مهماً تستخدمه جميع فئات المجتمع، وكل جيل يكتفيها حسب احتياجاته وتفاعله مع الزمان والمكان ولهذا فهي مرجع مهم لإبراز خصوصية المجتمع وتميزه الثقافي والحضاري بالإضافة إلى دورها التعليمي والإرشادي ونقل الخبرات والمعارف من السابقين إلى اللاحقين عبر وسائط لغوية وجمالية (التوازيات الصوتية، المحسنات البديعية، التكتيف الدلالي، الإيجاز... الخ) تساعد على حفظ هذه الأمثال وتداولها بين الأجيال وحفظها من الضياع، فهي تكشف عن لغة الجماعة وأسلوب عيشها ونمط تفكيرها ومعاييرها الأخلاقية... الخ.

ويستخدم المثل الشعبي لفهم المجتمع في عاداته وأخلاقه وسلوكياته وأسلوب تفكيره، وتساعدنا دراسة الأمثال الشعبية الجزائرية على المعرفة العميقة بأنساق القيم والمعايير التي يتبناها المجتمع، ولهذا فإن تحقيق أي تنمية مرهون بضرورة الإلمام بمختلف السياقات الثقافية والاجتماعية والتاريخية للمجتمع، لأن تراث أي أمة هو تصور للعالم يحمل تمثلات وتصورات الجماعة التي تتداوله وله تأثير كبير عليها.

وبالتالي فإنّ النظرة أو المعاملة السيئة التي تعاني منها المرأة اليوم موجود بعضها في بذور الثقافة الشعبية التي تشربت من الأمثال وغيرها من الأشكال الأخرى، حيث يغلب عليها التصوير السلبي للمرأة على حساب الجانب الإيجابي؛ ممّا يعمل على تكريس احتقار المرأة ومشروعية نبذها وتعنيفها حماية لسيطرة المؤسسة الذكورية وحماية مصالحها، بل هناك قواعد ثقافية بأكملها ترتبط بممارسات تقليدية يتجسّد فيها العنف مثلاً: زواج القاصرات، ختان البنات، نبذ المطلقات والأرامل، تفضيل المواليد الذكور على الإناث، جرائم الشرف.... الخ.

ويبدو أنه تطغى نوعاً ما النظرة السلبية للمرأة على حساب النظرة الإيجابية في الأمثال الشعبية الجزائرية، وقد أدت العوامل الثقافية التي لها علاقة بالعنصر الاجتماعي دوراً في هذا الأمر لأنها تتميز بترسيخها وصعوبة تصحيحها حتى وإن كانت خاطئة، ولكن تبقى هذه التمثلات قابلة للتغيير مع التعليم وزيادة وعي الأفراد.

6. قائمة المراجع:

الكتب:

- إبراهيم نبيلة، أشكال التعبير في الأدب الشعبي ط2، دار نهضة مصر، القاهرة (د.ت).
- ابن عبد ربّه، العقد الفريد ج1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1971.
- أمين أحمد، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية (د. ط)، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1953.
- آيت أوشان علي، النص والسياق الشعري من البنية إلى القراءة، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب 2000.
- برهومة عيسى، اللغة والجنس حفريات لغوية في الذكورة والأنوثة ط1، دار الشرق للنشر والتوزيع، عمان/الأردن 2002.
- بن هدوقة عبد الحميد، أمثال جزائرية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 1993.
- بورايو عبد الحميد، الأدب الشعبي الجزائري دراسة لأشكال الأداء في الفنون التعبيرية الشعبية في الجزائر ط1، دار القصة للنشر، الجزائر 2007.
- بوطارن قادة، الأمثال الشعبية الجزائرية، ترجمة، عبد الرحمن حاج صالح، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1987.
- خليل أحمد خليل، نحو سيولوجيا للثقافة الشعبية ط1، دار الحداثة، لبنان، 1979.
- الخوارزمي أبي بكر محمد العباس، الأمثال، دار عصي للنشر، القاهرة.
- خيدوسي رايح، موسوعة الأمثال الجزائرية، دار الحضارة، الجزائر، 2002.
- يونس علي، محمد محمد، المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية، (د. ط) دار المدار الإسلامي، بيروت، 2007.
- مجهول المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، 1975.
- Mohammed Ben Cheneb, Proverbes de l'Algérie et du Maghreb, Flites Editions, Médéa /Algérie 2013.
- J.C. Abric, Coopération, Compétition et représentation sociale, P.U.F. Paris, 1987.

• المقالات:

- عبد الحميد بورايو، البعد التداولي لأشكال التعبير الشعبي، مجلة اللغة والأدب معهد اللغة العربية وأدائها جامعة الجزائر، ع 17، 2006.